الشاميون والفرنج
تصور الآخر في عصر الحروب الصليبية

أ.د. منذر الحايك*
الجمهورية العربية السورية

أولاً – مسيحيو الشام والفرنج:

كانت تعيش في بلاد الشام الداخلية تركيبة عجيبة من السكان، من حيث الانتماء العرقي والديني على السواء، فقد كان فيها العرب والأتراك والأكراد والأرمن والزنوج، ومماليك من كل أصقاع الدنيا، ومهاجرين من المغرب العربي أو من بلاد فارس أو من القفقاس. وصحيح أن معظم السكان كانوا من المسلمين، لكن كانت هناك طائفة مسيحية لها وجود معترف به[1]، وظهرت لها زعامات محلية[2]. ومع ذلك فإن تأثير هذه الطائفة وزعاماتها في العلاقات مع القوى الفرنجية الغازية كان ضعيفاً جداً وذلك لسوء تصور كل منهما للآخر.

آ – صورة الفرنج لدى سكان الشام المسيحيين:

لقد عاش المسلمون والمسيحيون في الشرق العربي قبل الغزو الفرنجي بحالة فريدة من الانسجام، لا تعكرها إلا بعض المواقف الشاذة هنا أو هناك، فطالما اعتبروا أنفسهم فرعين لحضارة شرقية واحدة، وكان لديهم إحساس واضح بالانتماء إليها[3]. وكان المسيحيون يتوزعون على عدة طوائف أبرزها: الروم الأرثوذكس أو الملكانيين، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة إلى وجود بعض الفرنجة المستأمنين وهم غالباً من الكاثوليك، وكانوا يقيمون بشكل شبه دائم في المدن الساحلية خاصة لمزاولة الأعمال التجارية، ومنهم من كان

---

* أستاذ تاريخ العرب والإسلام ، وكيل جامعة القلمون، الرئيس السابق للجمعية التاريخية السورية.

[1] – شاكر مصطفى، في التاريخ الشامي، ١١٦.

[2] – أحمد إسماعيل، تاريخ السلاجقة ، ٦٤.

[3] – كلود كاهن، الشرق والغرب، ٢٥٦.

مستوطناً ممن قدم مع الحملات أو ولد في الشرق، وقد فضل بعضهم الاستمرار في العيش في المدن المحررة فدخل في عقد الذمة[1]، علماً أن الإقامة بين المسلمين والخضوع لهم كان أمراً محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات كالحرمان الكنسي واللعن والطرد كلياً من الكنيسة[2].

لقد سعى الفرنجة بعد تأسيس إماراتهم في سورية إلى استمالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة، فلما استولوا على القدس وأبادوا سكانها، حاول "بلدوين الأول" سد الفراغ السكاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن[3]، ولكن على ما يبدو لم تثمر عملية استمالة الفرنج لمسيحيي سورية، إذ أن هناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المتبادلة بين الجانبين[4]، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المسلمون كان دافعاً قوياً لمسيحيي الشرق كي يبعدهم عن الفرنجة الذين يتبعون كنيسة غريبة لها طقوس مختلفةويُ ذكر أنه عندما حرر السلطان صلاح الدين القدس عرض المسيحيون الأرثوذكس المساعدة من الداخل[5]، كذلك أشاع الفرنج أن السلطان صلاح الدين تلقى تهاني حامي الكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطور البيزنطي "إسحاق أنجيلوس"[6] على استرداده للمدينة المقدسة، وأنه كان صديقاً له، بل وحتى أنه تآخى معه[7]. وإذا كان ذلك في مجال الشك فإنه من المؤكد أن الإمبراطور البيزنطي "آندرونيكوس كومنين" سعى جاداً وراء تحالف يربطه بالمسلمين ضد الفرنجة[8].

وبالتعميم نستطيع القول إن المسيحيين في بلاد الشام لم يتعرضوا لأي اضطهاد أو خطر حقيقي على وجودهم، أو أنهم منعوا من ممارسة طقوس عباداتهم، طوال حقبة العصور الوسطى

---

[1] – العماد الأصفهاني، الفتح القسي، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ١٣ / ١٥٩.

[2] – فيليكس فابري، جولات ورحلات، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ٤٣ / ١١٤٢.

[3] – سميل، فن الحرب، ٩١

William of Tyr, *A History of deed's done Beyond the Sea*, p. 55; Prawer, J., *The Settlement of the Lateens in Jerusalem*, p.497.

[4] – Diogil, *La Croisades de Luis*, p. 314.

[5] – Runciman, *A History of Crusades* , p. 465.

[6] – إسحاق أنجيلوس: هو إسحاق الثاني (١١٨٥– ١١٩٥)

٧ – شاهد عيان، حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المقدسة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣١/ ٥٠.

[8] – أرنست باركر، الحروب الصليبية، ٨٤.

من قبل إخوانهم وجيرانهم المسلمين، ولذلك نجد أن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، وسائر المذاهب المسيحية الشرقية، قد هللت لتحرير المسلمين لمناطق الاحتلال الفرنجي، وخاصة بيت المقدس. ولقد كانت لهم دوافعهم القوية في ذلك، فقد جربوا التسامح الديني للمسلمين، كما لمسوا بشكل مباشر، بواسطة الوجود الفرنجي في الشرق، ما يعنيه العداء بين كنسية روما وكنيسة القسطنطينية. ومما يذكر هنا ما قام به عماد الدين زنكي عندما حرر الرها من الفرنج عام ٥٣٩هـ ١١٤٤م، فمع أنه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحليين بمنتهى الرأفة، وزار كنائسهم، وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرها "متى الرهاوي"[١].

وبالنتيجة نرى أنه على الرغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والفرنجة إلا أن روابط التاريخ واللغة والعيش المشترك مع المسلمين كانت أقوى، فمع أن المسيحيين السوريين لم يقاتلوا الفرنجة عنوة، ولم يكونوا مصدر إزعاج حقيقي لهم، إلا أنهم أيضاً لم يستغلوا الظروف الصعبة التي مر بها المسلمون، فلم يقاتلوهم ولم يثيروا القلاقل أو يشكلوا عقبات أمامهم. ومع أنه تم طرح كثير من النظريات حول تعاون وثيق بين مسيحيي سورية والفرنجة، لكنها بمعظمها تعتمد على أحداث محددة وتخمينات وتعميمات، فالنصوص التاريخية تذكر أن قوات المشاة في الإمارات الفرنجية كانت تشكل من السكان المحليين غالباً، وهذا صحيح ولكن ليس بالضرورة أن تكون من المسيحيين، فقد كانت تضم أتراكاً وأكراداً وعرباً[٢]، وإذا كان جلها من المسيحيين فهم من الأرمن.

أما تعاون المسيحيين المحليين مع الفرنجة فقد تقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة، إضافة إلى حوادث فردية قد تثير الاستغراب أكثر مما تعد دلائل على وجهة نظر محددة، ومنها الرواية التي أوردها أبو شامة على ذمة من أبلغه، يقول: "بلغني أن النصارى ببعلبك سخموا وسودوا وجوه الصور في كنيستهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي فجناهم جناية شديدة وأمر

---

[١] – سميل، فن الحرب، ٩٤.

[٢] – كلود كاهن، الشرق والغرب، ١١٤.

اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم"[1]، هذا الحدث الذي لا ندري في أي كنيسة تم في بعلبك، وقد تكون للموارنة، وربما ليس في مدينة بعلبك نفسها بل في منطقتها حيث ينتشر بعض الموارنة في غربها، وربما كانت القصة رداً لتبرير ما قام به المسلمون في دمشق، فبعد هزيمة لويس وأسره في دمياط عام ٦٤٨هـ ١٢٥٠م، أرسل المعظم تورانشاه ملابس الملك لويس الأسير إلى واليه على دمشق جمال الدين ابن يغمور، "فدخل الناس كنيسة مريم بفرحة وسرور ومعهم المغاني ويطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة"[2]، وبما أن أبو شامة مؤرخ رصين، ولم يجرب عليه أي تلفيق ولذلك نميل للاعتقاد بأن ما تم قد يكون في كنيسة مارونية في جنوب البقاع، فصلات الموارنة بالملك لويس كانت وثيقة[3].

وبشكل عام كان المسيحيون الشرقيون في الشام يشعرون بارتباط ما بالمسلمين، إن لم يكن للجيرة والمعاملة الحسنة التي يلقونها منهم فللإحسان المرجو، فقد كان معظم الكتبة في مصر والشام خلال عصر الحروب مع الفرنجة من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هو "ابن الميقاط"، الملقب بالشيخ أبي الفتوح، الذي كان كاتب جيوش الملك العادل، وكان لديه في ديوانه "جماعة من الكتاب مسيحيون أقباط"، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشام ومصر مرافقاً للسلطان العادل يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عباداتهم في الطريق بكل حرية، "وقد اصطحب معه القس داود بن يوحنا بن لقلق ليصلي بهم"[4]. ولهذا استمر المسيحيون الشرقيون بولائهم المعلن للممالك الإسلامية مقابل عداء ظاهري واضح نحو الفرنج.

ب – المسيحيون المحليون في المناطق الفرنجية المحتلة:

---

[1] – أبو شامة، ذيل الروضتين، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ٢٠/ ٣٦٥ (نقلها عنه : النويري، نهاية الأرب، ص٢٩–٣٥٩ و ابن كثير، البداية والنهاية، ص١٣/ ١٧٨).

[2] – أبو شامة، ذيل الروضتين، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ٢٠/٣٦٥؛ و ابن الجزري، محمد بن إبراهيم، المختار من حوادث الزمان، ٢٢٣ . ثم يتابع أبو شامة مباشرة: "وبلغني أن النصارى ببعلبك ..."

[3] – يوسف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ٦٧–٦٨.

[4] – ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ٦.

لم تكن الحدود السياسية في الشرق العربي زمن الحروب مع الفرنجة لها أي معنى ديني أو عرقي، حتى أنه لم يكن هناك خط حدود واضح أو محدد على الأرض، وعلى العموم كان الفرنج في غالبية أيلمهم محصورين في شريط ساحلي ضيق ومتقطع أحياناً .

كان الفرنجة بغالبيتهم فرساناً ومقاتلين شكلوا طبقة حاكمة إقطاعية في المدن والحصون التي كانت نقاط تحكم وسيطرة، فعندما لا تكون لهم قوات في الميدان نراهم يعيشون خلف أسوارهم[1]. ولم يشكل الفرنجة في مناطقهم أكثرية سكانية، فقد كان معظم السكان من المسلمين والمسيحيين المحليين، الذين استمروا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصة زراعة الأرض. فكان وجود الفلاحين ضروري لوجود المجتمع والدولة، وحتى في حال توفر أعداد من السكان الفرنجة، كما في حالة المدن، فوجود السكان المحليين ليقوموا بالأعمال اليومية ضروري، لأن الفرنجة كانوا غالباً مشغولين في الحروب التي تقتضي منهم حشد كل طاقاتهم البشرية المقاتلة. كل ذلك دفع حكام الفرنجة لترك حيز واسع من حرية العمل وربما الإدارة الذاتية لرعاياهم المحليين، فضلاً عن قيامهم بشعائرهم الدينية وممارسة عاداتهم وتقاليدهم بكل تسامح. إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السكان المحليين، ما كان أبداً بدوافع إنسانيةمحضة، بل كان واضحاً تماماً أنه من أجل تنشيط الحركة الاقتصادية في إماراتهم، وبالتالي زيادة مواردهم المالية[2]. لكن مع كل ذلك ظل السكان المحليون مسلمون ومسيحيون ينظرون إلى الفرنجة كغرباء، وقد أظهرت الأحداث أنهم دائماً كانوا ينتظرون ميلان كفة المسلمين ليتحركوا معهم. وصحيح أن السكان المحليين كانوا عنصر اقتصادي مؤثر في دعمه لآلة الحرب الفرنجية، لكن عندما كان يتمكن قائد مسلم من إحسان الاستفادة منهم فإنهم

---

[1] – سميل، فن الحرب، ١٠٩ ؛

William of Tyr, *A History of deed's done Beyond the Sea*, p.486.

[2]– Couiton, *Medieval Panorama*, p. 322.

– راجع ما كتبه ابن جبير الذي زار أراضي الفرنجة ومدنهم عام ١١٨٤م، الرحلة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ص١٤/ ٥٨.

كانوا يشكلون خطراً مميتاً على الفرنج، ولذلك قال عنهم وليم الصوري: "ما من عدو أسوأ من العدو المقيم بين ظهرانيك"[١].

ج- صورة المسيحيين الشاميين لدى الفرنج:

لم يتمكن الفرنجة من احتواء نصارى المنطقة من عرب وسريان وأرمن وغيرهم، فقد كان الفرنجة يعدون أنفسهم، كما قال وليم الصوري: "رعايا المسيح"، ويعدون الأمم الأخرى: "أبناء الضلال"[٢]، وهذا الضلال ينسحب أيضاً على المسيحيين الشرقيين في سورية الذين احتكوا بكثرة بالفرنجة، من خلال تواجدهم في معظم مناطق السيطرة الفرنجية، وفي مناطق القتال بينهم وبين المسلمين. لكن بشكل عام كان دور المسيحيين الشرقيين في الحروب مع الفرنجة هامشياً ضعيفاً، وذلك لوجود فواصل مهمة بينهم وبين الفرنجة الذين نظروا إليهم، في أحسن الأحوال، على أنهم مسيحيين هراطقة مستعربين، ولم يعدوهم بأفضل من المسلمين، فإذا قدروا على قتلهم كان به، وإلا فسلب كنائسهم وأراضيهم لا بأس به[٣].

وقد نظر الفرنجة إلى مسيحيي الشرق نظرة دونية، وعدوهم شعباً غير محب للقتال[٤]، ووصف وليم الصوري السريان بقوله: "هو شعب نعتبره ضعيفاً ومخنثاً"[٥]، ومع أن وليم ليس من الفرنج الوافدين فهو من مواليد سورية، ومع ذلك بقيت لديه نزعة التفوق كفرنجي. لكن من كل ذلك يجب أن نستثني حالة المسيحيين الموارنة والتي سنفرد لها الفقرة التالية.

د- المسيحيون الموارنة والفرنج:

١- تصور الموارنة للفرنج:

---

[١] - العبارة اللاتينية هي: "nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas" (William of Tyr, *A History of deed's done Beyond the Sea*, p.109)

[٢] -نقلاً عن وليم الصوري (الحروب الصليبية – روايات شهود عيان، د. سهيل زكار، ٤٠١)

[٣] - كلود كاهن، الشرق والغرب، ٩٧.

[٤] - William of Tyr, *A History of deed's done Beyond the Sea*, p. 109; سميل، فن الحرب، ٩٧.

[٥] - وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٧/ ٤٥٩.

كان الموارنة يشكلون طائفة دينية صغيرة في عصر الحروب مع الفرنجة، وقد سكنوا جانب من سفوح جبال لبنان الغربية، وكانوا منعزلين تماماً عن المسلمين وعن الطوائف المسيحية الأخرى، فهم سريان لكنهم لا ينتهجون العقيدة الأرثوذكسية، وبالوقت نفسه لا يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية بل يتفردون بعقائدهم. لكن وصول قوات الفرنج إلى الساحل الشامي دفع الموارنة، بالرغم من استعرابهم باللغة، لاعتبار الفرنجة أقرباء لهم وأنهم سيكونون مَخَلِّصين[١]، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أول المرحبين بهم.ثم أرسلوا وفودهم إلى روما وانضموا رسمياً وشرعياً إلى كنيستها الكاثوليكية، وكان كل ذلك على يد "إيمري" بطريرك اللاتين في إمارة أنطاكية الفرنجية، بعد أن "أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة"[٢].

٢- تصور الفرنج للموارنة:

اندفع الموارنة لدعم الفرنجة في معاركهم، وكان لهم دور مؤثر أحياناً، يقول وليم الصوري عن الموارنة: "لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقدروا بأنهم أكثر من أربعين ألفاً، وكانوا شعباً قوي البنية ومقاتلين شجعاناً، قدموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو"[٣]. ورداً لجميل الموارنة قام الفرنج أثناء احتلالهم للساحل الشامي "بمنح موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية"[٤]. ويقال أن عدداً من موارنة لبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التاسع في حملته على مصر، وكانت جموع منهم في استقباله أثناء عودته إلى عكا من الأسر، "وأرسل لهم لويس خطاباً خاصاً يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له"[٥]. كما ارتفعت في ذلك الوقت أصوات كثيرة في أوروبة تطالب بضم الموارنة باعتبارهم جزء من العالم المسيحي الغربي[٦].

---

[١] – كلود كاهن، الشرق والغرب، ٩٩.

[٢] – وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٧ / ٤٤٤.

[٣] – وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٧ / ٤٤٤.

[٤] – فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان، ٢/ ٢٦٢.

[٥] – يوسف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ٦٧-٦٨.

[٦] – بيير دو بوا، استرداد الأرض المقدسة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٧ / ١٤٤.

ثانياً- إسماعيلية الشام والفرنج:

لقد كانت قلاع طائفة الإسماعيلية في الشام تقوم على الحدود الفاصلة بين مناطق سيطرة الفرنج في الساحل وبين بلاد المسلمين في الداخل، فهم اختاروا لها نقاط إستراتيجية على قمم جبال الساحل الشامي بعد طردهم من المدن الداخلية[١]. ولا بد هنا من ملاحظة التساهل الأيوبي معهم، والتغاضي عن وجودهم، بل والحماية والمساعدات العسكرية لهم رغم العداء المذهبي[٢]، فقد نصَّب الأيوبية أنفسهم، كما الأتابكة والسلاجقة من قبلهم، حُماة للسنة وتشددوا مع أعدائها، وهذا الموقف الأيوبي من الإسماعيلية لا نستطيع تفسيره إلا بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم كحد فاصل بمواجهة قلاع الفرنجة، الذين أقاموا على حدودهم طائفتي الاسبتارية والداوية، وهم الأشد تعصباً والأكثر شراسة، على حدود بلاد الإسلام. فكأن الإسماعيلية وجدوا في المكان المناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والممالك الإسلامية في الشام. ولكن يبدو أن الكفة كانت تميل لصالح الاسبتارية والدواية، فسلاح الإسماعيلية، الذي أرهب الملوك والأمراء، لم يكن ذي جدوى مع هذه الطوائف، فإذا قتل لهم سيد حل محله آخر، والإسماعيلية لا يضيعون رجالهم بلا مقابل[٣]، لذلك رضخ الإسماعيلية ودفعوا المال إلى كلاً من الاسبتارية[٤]والداوية[٥].

آ- تصور إسماعيلية الشام للفرنج:

لقد سعت طائفة الإسماعيلية في الشام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين الممالك الإسلامية من جهة وإمارات الفرنجة من جهة ثانية، فبعد أن أمنوا جانب الأيوبيين في اتفاق غير

---

[١] - كلود كاهن، الشرق والغرب، ١١٤.

[٢] - يعتقد بوجود معاهدة سرية عقدت بين صلاح الدين وإسماعيلية الشام، والتزم بها الإسماعيلية والأيوبية طيلة مدة حكمهم. للتوسع حول هذه المعاهدة راجع: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، منذر الحايك، ١/ ٣٤١.

[٣] - جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦ / ١٦٨.

[٤] - ابن نظيف، المنصوري، ١٥١ و جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من لموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦ / ١٦٨.

[٥] - روجر أوف ويندوفر، ورود التواريخ، الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٧٠/٤٤؛ جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦ / ١٦٨.

معلن، عملوا لعقد تحالفات مع الفرنجة[1]. ويبدو أن الفكرة السيئة للفرنجة عن الإسماعيلية هي التي حالت دون إتمام ذلك[2]، لكن الإسماعيلية ما كفت من محاولاتها للتحالف مع الفرنج، والسعي لإقامة علاقات طيبة معهم لموازنة علاقتهم بالأيوبيين، فدعوة مقدم الإسماعيلية نصر الفارسي عام ٥٨٩هـ ١١٩٣م للكونت "هنري دي شامبين" أحد أمراء عكا الكبار لزيارته في مقره أثناء مروره بطرطوس، والحفاوة في استقباله، واستعراض قلاعه وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثم الهدايا الثمينة التي قدمت له[3]، فما كل ذلك إلا بدايات مبكرة لتطلع إسماعيلي لعلاقات جيدة مع الفرنج ومحاولة لكسب ودهم.

ترددت اتهامات مباشرة للإسماعيلية أنهم نفذوا عدة عمليات اغتيال لصالح الاسبتارية جيرانهم في جبال الساحل السوري[4]، فعندما اغتالوا "ريموند بن بوهيمند" أمير أنطاكية في كنيسة طرطوس عام ٦١٠هـ ١٢١٣م[5]، قيل أن ذلك تم بتحريض من الاسبتارية. وعندما اغتيل بطريرك القدس عام ٦١١هـ ١٢١٤م، وهو المعروف بعدائه للاسبتارية، فاتهموا الاسبتارية بتحريض الإسماعيلية على قتله[6].

---

[1] – كلود كاهن، الشرق والغرب، ١١٤ و سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ١٠٩.

[2] – حول المعتقدات الأوربية عن الإسماعيلية في العصور الوسطى راجع: الراهب فيليكس فابري، جولات ورحلات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١١٩٤/٤٣؛ روجر أوف ويندوفر، ورود التواريخ، الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، ١٧٠/٤٤.

– وقد وضع القس الألماني ي ريكاردوس رسالة لملك فرنسا فيليب السادس عندما فكر بغزو الشرق الإسلامي عام ١٣٣٢م، قال فيها: " أذكر الحشاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنهم يبيعون أنفسهم ويتعطشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر... وهم يغيرون مظهرهم كالشياطين... وذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات" (لويس، برنارد، الحشاشون، ١١) ولذلك أصبحت كلمة حشاشين Assassinاسماً شائعاً للاغتيال في معظم اللغات الأوربية.

[3] – وليم الصوري، ذيل التاريخ ، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٨/ ٤٧٤.

[4] – سيطر الاسبتارية على عدة قلاع مواجهة لقلاع الإسماعيلية، منها قلعة الحصن (كراك شيفالييه)، وقلعة صافيتا (البرج الأبيض).

[5] – ابن العديم، زبدة الحلب، ٦٣٧/٢ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ٢١٩/٣.

[6] – رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٧/٣.

كل ذلك يدل على مدى الضغط الذي كان الاسبتارية بمقدورهم ممارسته على الإسماعيلية، حيث يدفعون لهم إتاوات سنوية، وينفذون عمليات اغتيال لحسابهم، إنما ليس ضد الأيوبيين، فعلى ما يبدو كان التحالف معهم شيء مقدس بالنسبة للإسماعيلية، فبعد قتلهم لابن أمير أنطاكية هاجم والده بلادهم، ولم يتحرك الاسبتارية لنجدتهم بل ربما اضطروا للتظاهر بدعم بوهيمند ضدهم، بينما تحرك الملوك الأيوبيين بكل حزم من حلب ومن دمشق لنجدتهم، وأنقذوهم منه. ومع كل ذلك فقد كانت علاقة الإسماعيلية في الشام تختلف كلياً بالنسبة لملوك أوربا القادمين نحو الشرق أو أمراء وملوك الفرنجة الآخرين.

فعندما قدم الإمبراطور فريدريك الثاني في حملته نحو فلسطين عام ٦٢٤هـ ١٢٢٧م راسله "مجد الدين"مقدم الإسماعيلية في الشام، ويبدو أنه ضمَّن رسالته تهديداً مباشراً لشخص الإمبراطور، لذلك سارع برد الجواب مع رسول خاص، "وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم"، فحلف له مجد الدين وأرسل قميصه أماناً للإمبراطور[١]، إنه مبلغ كبير يدفعه فريدريك ولكنه يدل على خوف أكبر من ذُنَّاك الإسماعيلية. وهذا ما شجع الإسماعيلية على إرسال رسلهم إلى الملك لويس ملك فرنسا عندما قدم إلى الشرق، حيث التقوا به في قبرص. يتحدث "جوانفيل" مرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضراً فيه، فيقول: "وصلت رسل شيخ الجبل، وقد حمل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كل واحد منهما في مقبض الآخر، وقدموها للملك شارة للتحدي إذا لم يتم الاتفاق، ولف الآخر حول ذراعه قطعة من قماش الكتان وقدمها للملك لتكون كفناً له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك: مولاي يسألك إذا ما كنت تعرفه؟ فرد لويس بأنه سمع عنه، فقال الرسول: بما أنك سمعت عنه فأنا مندهش لأنك لم ترسل مبلغاً من المال لتبقيه صديقاً لك مثلما يفعل إمبراطور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقك فعليك ترتيب أمر إعفائه من دفع الجزية للاسبتارية والداوية.

وفي المقابلة الثانية حضر مقدما الاسبتارية والداوية مع الملك، فتحدثا مع الرسل بالعربية وهددوهم بالقتل، وطلبا منهم المغادرة والعودة خلال أسبوعين مع هدايا للملك لويس لإرضائه.

---

[١] – ابن نظيف، المنصوري، ١٥١.

وفعلاً عادت الرسل في المهلة المحددة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهو تعبير عن تقربه للملك، وخاتمه الخاص وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال ربطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس وأعادهم مع كثير من الهدايا يرافقهم راهب بريطاني يجيد العربية هو "إيف لي بريتون"، الذي اعتبر أن أهم اكتشاف له في بلاد الإسماعيلية هو أن شيخ الجبل لا يتبع شريعة محمد (ص)، بل هو من أتباع علي (رض)[١].

ب- تصور الفرنج لإسماعيلية الشام:

كانت العلاقات السياسية والعسكرية بين إسماعيلية الشام وجيرانهم فرنج الساحل الشامي تحمل في طياتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصح كانت العلاقات القائمة بينهما مبنية على المصالح المتبدلة دوماً والمتناقضة أحياناً، وربما كان هذا النوع من العلاقات هو سبب تضارب معلومات مؤرخي الفرنج عن الإسماعيلية، يقول عنهم "بورتشارد" راهب جبل صهيون: "هناك مسلمون اسمهم الحشيشية يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عدداً من القلاع والمدن مع أراض خصبة، ويقال أن لديهم أربعين ألف مقاتل، ولديهم مقدم واحد لا يلي بحق الوراثة بل بسبب الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويقال أنهم من أصل فارسي، وهم مرعبون لجميع من حولهم"[٢]. إن الوصف الجغرافي الذي يحدده الكاتب الفرنجي صحيح تماماً، وكذلك المعلومات عن تولي مقدمهم، فقد كان الإسماعيلية متاخمين لمناطق السيطرة الفرنجية، حتى أنه كان هناك نوع من رسم للحدود بين الطرفين، فقد وجدت أحجار لتعليم الحدود الفاصلة، نقش عليها من جهة الإسماعيلية خناجر، ومن جهة الفرنج صلبان[٣]. ولكن تعداد مقاتليهم المذكور فيه مبالغة هائلة، كما أن الأصل الفارسي ينطبق فقط على المقدمين، بينما الأتباع، وإن كانوا خليطاً عرقياً، فهم محليون.

ثالثاً- بدو الشام والفرنج:

---

[١] - جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦ / ١٦٧-١٦٨.

[٢] - مذكرات بورتشارد راهب جبل صهيون، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٩ / ٢٤٢.

[٣] - مذكرات بورتشارد راهب جبل صهيون، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٩ / ٢٤٢.

في العلاقات بين قبائل البدو والفرنج لا يمكن أن نخرج بحكم مطلق، فقبائل البدو العربية بلغت من التفرق الجغرافي والانقسام السلالي مبلغاً كبيراً، ولم يشكلوا في أفضل الأحوال تجمعاً قبلياً أو اتحاداً يضم معظم العربان، ولكونهم يعيشون بهذا الشكل من الانتشار الواسع والاختلاف والتنازع فمن الطبيعي أن يكون بينهم اللصوص النهابين وكذلك وجود ذوي النخوة والمروءة والكرم، ونجد من يتعامل مع الفرنجة ويدلهم على عورات المسلمين، وفي المقابل نجد المجاهدين الذين يبلون أحسن البلاء.

آ- تصور عربان البدو للفرنج:

منذ بدايات الغزو الفرنجي لبلاد الشام وجد الفرنجة من يتعاون معهم من البدو، وقد تجلى هذا التعاون بأوضح صورة أمام أسوار حلب عام ٥١٨هـ ١١٢٤م عندما حاصر الفرنج المدينة وبدا لهم أن سقوطها سيفتح أمامهم أبواب سورية الداخلية، فاتصلوا مع "دبيس بن صدقة"، صاحب الحلة في العراق وأمير بني أسد، واتفقوا معه على أن يساعدهم لاحتلال حلب. كما اتفقوا مع "سالم بن مالك العقيلي"، سيد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قوات القبائل العربية قوات الفرنج في الهجوم على حلب، وارتكبوا الفظائع، ونكلوا بالموتى، حتى جاء "البرسقي" أمير الموصل وأنقذ حلب[١].وكان هذا التعاون اختباراً مفيداً للفرنج تعرفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو والاستفادة من قوتهم العسكرية مقابل بعض المكاسب.

وفي بدايات دولة صلاح الدين وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يحاصر حران عام ٥٧٨هـ ١١٩١م، قامت حملة فرنجية من الكرك وتوجهت نحو الحجاز، "لينبشوا الحجرة النبوية، وينقلوه إليهم ويأخذوا من المسلمين جعلاً على زيارته"[٢]، وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، حتى وصلت ساحل المدينة، "ودلها على عورات الساحليين من العرب من أشبه ركابها في الكفر"[٣]، "وكان معهم طائفة من مرتدة العرب"، ولما كان صلاح الدين لا يستطيع الحركة، كلف نائبه بمصر "سيف الدولة بن منقذ" فسير الحاجب "لؤلؤ الأرمني"، "فتداركهم، وبذل

---

[١] – سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية – الموسوعة الشاملة، ٣ / ٢٦٠-٢٦١.

[٢] – الموفق عبد الطيف البغدادي، تاريخ البغدادي ورحلته، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٤/ ٨٨.

[٣] – من رسالة للعماد الأصفهاني في: أبو شامة، الروضتين، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٨ / ٤٣٥.

الأموال، فمالت إليه العرب للذهب"، فاستسلم الفرنج[1]. وفي الحقيقة يحار المرء أمام تفسير موقف موقف كهذا لأعراب الحجاز، ولا يجد سبباً لتعاونهم مع الفرنج لنبش الحجرة النبوية إلا السبب الذي جعلهم يتخلون عنهم، وهو الذهب والطمع بالمكاسب، ولا أدري هل نستطيع أن نجد لهم ولو عذراً بسيطاً في حالة الفقر والجوع والجهل التي كانوا يعيشونها في غالب أيامهم؟

وفي أثناء حملة ملك إنكلترا ريتشارد على فلسطين، كان يعسكر قرب قلعة النطرون، "فوصل إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمان والثقة، وأقسما له يميناً تعهدا به بأنهما سيخدماه بإخلاص وسيطلعاه على كمائن جيش صلاح الدين، وعن كل ما يدور حول صلاح الدين وجميع أهل البلاد"[2]، إن هذا التصرف قد لا يمثل سلوك كل بدو فلسطين، لكن في كثير من الأحيان كنا نجد مثل هذه الحالات، فهي طريقة سهلة للعيش لضعاف النفوس، خاصة في حال غياب أي شعور ديني أو قومي أو وطني. ويبدو أن الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البدو، وأنه اهتم بهم كأدلاء وجواسيس مأجورين واعتمد عليهم، وسيرهم يتسقطون له الأخبار، فعلم منهم بمسير قوافل مصر نحو الشام، "وكان العدو يترقب أخبارهم ويتوصل إليها بالعرب المفسدين"[3]، واندمج الملك ريتشارد بلعبته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتى أنه "ركب مع العرب بجمع يسير، وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي"[4].

وبلغ تعامل البدو مع الفرنجة حداً أزعج صلاح الدين إلى درجة أنه قاد حملة خاصة عام ٥٦٨هـ ١١٧٣م لطرد البدو من منطقة الكرك، لمنعهم من مساعدة الفرنج الذين استخدموهم جواسيس وأدلاء[5]، وهي أول غزوة لصلاح الدين من مصر، وكانت في عهد نور الدين، لذلك أرسل له صلاح الدين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرك العسكري، قال: "علم المملوك بما يؤثره المولى، فإن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم، ويفل

---

[1] – الموفق عبد الطيف البغدادي، تاريخ البغدادي ورحلته، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٤/ ٨٨.

[2] – وليم الصوري، ذيل التاريخ ، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٨ / ٤٣٤.

[3] – ابن شداد، النوادر السلطانية، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٥/ ٢٣٢.

[4] – ابن شداد، النوادر السلطانية، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٥/ ٢٣٢.

[5] – أبو شامة، الروضتين، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١/ ٢٠٦.

أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقي في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومن اجتهد فيه عامة الاجتهاد، وعده أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلا"[١].

إنها إذن معاناة شديدة كان المسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم واطلاعهم على عوراتهم، لم يجد لها صلاح الدين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده لقطع اتصالهم بالعدو الفرنجي. ثم أصبحت هذه السياسة عامة يطبقها صلاح الدين حيثما شك بتعامل البدو مع الفرنجة، فبعد فتح صلاح الدين للبلاد قام عام ٥٨٣هـ ١١٨٧م بنقل بنو ثعلبة من منطقة غزة إلى مصر لأنهم كانوا يتعاملون مع الفرنج كأدلاء وجواسيس[٢]، فقد "كانوا يداً مع الفرنج على المسلمين"[٣].

ومع أن صلاح الدين لم يتوقف عن الاستعانة بالبدو كقوات خفيفة الحركة لمساندة جيشه، لكنه تعلم بعد هزيمة الرملة أنهم سلاح ذو حدين، فما إن لاحت الهزيمة حتى انقلبوا على جيش صلاح الدين ينهبون أثقاله ومتاعه[٤].وأجمع المؤرخون أنه كان للأعراب موقفاً مخزياً في معركة دمياط عام ٦١٥هـ ١٢١٨م، فقد كان الملك الكامل مرابطاً بجيش مصر أمام الفرنج الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشام يجمع النجدات ويوجهها إليه، وفي هذه الأثناء مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرب إلى مصر بموته "حتى وقع الطمع في

---

[١] – ابن واصل، مفرج الكروب، ١/ ٢٢٥؛ أبو شامة، الروضتين، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١/ ٢٠٦.

[٢] – القلقشندي، قلائد الجمان، ٨٣ ؛ المقريزي، البيان والإعراب، ٥ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ١/ ٣٢٢؛ أبو شامة، الروضتين، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٢ / ٥٢٦.

[٣] – ابن فضل الله العمري، قبائل العرب، ١٠٧ ؛ المقريزي، البيان والإعراب، ٥ .

– وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم من جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنها مكافأة قدمها صلاح الدين لهم، يقول: "وكان لقبائل طيء فضل كبير في محاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدين أن يكافئهم، فنقل منهم جرماً وثعلبة إلى الحوف الشرقي". (دراسات في تاريخ العروبة – ملحق البيان والإعراب، ١١٦).

[٤] – السيد الباز العريني، الشرق الأدنى، ١٦٦.

الملك الكامل، وثارت العرب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم"[1]. "ولما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج"[2]. مع أن تصرف قبائل البدو هذا لا يمكن أن يبرره أي عذر نضعه لهم لكنه قد يبدو رد فعل على معاناة طويلة من ظلم السلطة الأيوبية، التي ما إن انشغلت عنهم بالفرنج حتى ثاروا عليها ونهبوا ما حولهم، وقد يفسر الأمر بأنها طبيعة البدو وفطرتهم بالسلب والنهب، فما إن وجدت لها متنفساً حتى انطلقت، ولكن مهما كان السبب فهو غير مهم بجانب فعلهم المنكر الذي لا يمكن تبريره إلا بجهلهم المطلق لأي مصلحة عامة هي مصلحتهم فيما بعد. وبالتأكيد لم يكونوا ليدركوا حجم البلاء الذي يسببونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرسمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغاً كبيراً، حتى أن بعض الناس وقتها رأوا أن الفرنج أرحم من البدو[3].

ويبدو أن بطش الملك الصالح أيوب هو الذي منع تكرار حوادث البدو في حملة لويس التاسع على دمياط واحتلاله لها. لكن ما إن تلوح الفرصة حتى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يبدلونها، فبعد أن أحرق المسلمون الجسور التي بناها لويس للعبور عليها من أجل الهجوم على المسلمين، جاء بدوي إلى معسكره وأخبره أن بإمكانه أن يدله على مخاضة تمكن جيشه من العبور إلى جهة المسلمين، شريطة أن يعطيه خمسمائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الفرنجي وفاجئوا المسلمين في معسكرهم[4]، ويتابع جوانفيل مرافق الملك لويس رواية ما حدث،

---

[1] – المقريزي، السلوك، ١/ ٣١٤.

[2] – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢/ ٣٢٦ و كذلك راجع: الحنبلي، شفاء القلوب، ٣٠١.

٣ – المقريزي، السلوك، ١/ ٣٢٠ .

– بعد أن احتل الفرنج دمياط أرسل الكامل يجمع المتطوعين من القاهرة، ولإثارة حماسة الناس أبلغوهم أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه، فقال الشاعر الشعبي:

يهددونا بأهل عكا أن يملكونا وأهل يافا

ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا

[4] – جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦/ ٨٨.

فيقول: "بعدما هزمنا المسلمين وطردناهم من خيمهم وتركوا مخيمهم فارغاً اندفع البداة للقيام بنهبه، ولم يترك اللصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كل شيء خلفه المسلمون . . ومن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عد الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم"[١].

وبعد كل ما ذكرناه هل نستطيع الحكم على قبائل البدو بالعمالة المطلقة للفرنج؟ لا أظن ذلك، فإن ما ورد هو نصف الحقيقة، وهو لا ينفي أنه كان لكثير من طوائف البدو مواقف وطنية، ووقفات يسجلها التاريخ لهم، فقد كان جيش صلاح الدين لا يخلو من فرسان البدو المتطوعة للجهاد. فعندما كان السلطان مخيماً في مرج عيون، وضع مجموعة من فرسان بني ربيعة في كمين للفرنج، فكشفوهم وحاصروهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن أخرهم، وكان فيهم ثلاثة من أمراء بني ربيعة[٢]. كذلك كان السلطان صلاح الدين يعرف قيمة البدو كأدلاء فنجدهم يتقدمونه في مسيره[٣]، ثم يسلطهم على معسكرات العدو فيقضون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتى أنهم في أحد الأيام أحضروا للسلطان كنيسة المعسكر الفرنجي وهي خيمة كبيرة[٤]، وهذا دليل على جسارتهم على العدو واقتحامهم لمعسكراته، حتى أنهم فكوا خيمة الكنيسة من وسط المعسكر وحملوها.

وعندما كان السلطان صلاح الدين مرابطاً أمام الفرنج على حصار عكا بلغه أن جمعاً من الفرنج يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف النهر، "فأكمن لهم جماعة من العرب، وقصد العرب لخفتهم على خيولهم وأمنه عليهم، فخرجوا ولم يشعروا بهم"[٥]، "وحالوا بينهم وبين خيامهم"[٦]، "وهجموا عليهم وقتلوا منهم خلفاً عظيماً، وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة"[١]. وفي

---

[١] – جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٩٩/٣٦.

٢ – العماد الأصفهاني، الفتح القسي، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٣/ ١٩٨.

– والأمراء هم: زامل بن تبل بن مرا بن ربيعة أمير بني ربيعة، والأمير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرا بن ربيعة، وآخرين غيرهم.

[٣] – ابن شداد، النوادر السلطانية، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٥/ ٢٥٣.

[٤] – أبو شامة، الروضتين، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٢٠/ ١٩٤.

[٥] – ابن شداد، النوادر السلطانية، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٥/ ١١٦.

[٦] – العماد الأصفهاني، الفتح القسي، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ١٣/ ٢٠٧.

عام ٦٤٧هـ ١٢٤٩م بعد أن احتل الفرنج دمياط استنفر الملك الصالح أيوب الناس، "فوصلت عربان كثيرة جداً وأخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم"[٢]. وكل ذلك مواقف وطنية وجهادية يجب أن نتذكرها إلى جانب كل ما كان يذكر لهم من مواقف سيئة.

ب- صورة البدو لدى الفرنج:

قبِل الفرنج التعامل مع البدو، وبلا شك فقد أفادوا منهم في مواقف كثيرة وخاصة للدلالة في مسالك بلاد مجهولة بالنسبة إليهم، ومعروفة بدقة بالنسبة للبدو. وبالمقابل عاش الفرنج معاناة كبيرة من البدو، فهم لم يخلصوا لهم في يوم من الأيام، وكانوا على الدوام ينتظرون الفرصة لينقضوا عليهم، كما كانوا يفعلون بجيوش المسلمين. لذلك ظل الفرنج حذرين غاية الحذر في تعاملهم مع البدو، بل ربما كانوا يخافون منهم، ويتضح هذا الخوف من خلال الصورة التي نقلها عن البدو مؤرخو الفرنجة، فيقول عنهم "بورتشارد" راهب جبل صهيون:

"البدو يملكون أعداداً كبيرة من الماشية ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكاناً دائماً للإقامة، يقصدون المراعي ويقيمون خيامهم . . مقاتلون متفوقون، يحبون الحرب ويستخدمون السيف والرمح في المعركة ولا يستخدمون النشاب، ويقولون إنها دناءة أن تنتزع حياة إنسان بواسطة سهم، وهم شجعان، ولا يرتدون إلا قميص فوقه عباءة فضفاضة ويغطون رؤوسهم بقطع قماش"[٣]. ويقول الراهب الدومينيكاني "فيليكس فابري": "إن البدو يزجون أنفسهم في أعظم المخاطر من دون خوف، لاعتقادهم بأن الموت أمر مقضي من الله لا يمكن تجنبه"[٤]. ويقول عنهم "جين جوانفيل" مرافق الملك لويس في حملته على مصر: "ولا يعيشون في قرى أو مدن، بيوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام معالجة بالشب، يرتدون عباءات من الصوف يلفون أنفسهم بها، ويعتقدون أن الإنسان لا يموت قبل اليوم المحدد له، فلذلك يرفضون لبس

---

[١] – ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ٢٩٤.

[٢] – المقريزي، السلوك، ١/ ٤٣٩.

[٣] – راهب جبل صهيون بورتشارد، مذكرات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٩/ ٢٤٢.

[٤] – الراهب فيليكس فابري،، جولات ورحلات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٤٣ / ١١٩٤.

الدروع، وشتيمتهم: عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع خوفاً من الموت" [1]، ويلخص فيليكس فابري النظرة إلى البدو في عصر الحروب الصليبية بقوله: "إن البدو مكروهون من المسلمين والمسيحيين سواء"[2].

رابعاً– تصور مؤرخو الشام لبابوات روما:

لقد كانت في لعالم الإسلامي فكرة قريبة جداً إلى الواقع عن الموقع الحقيقي للبابوات في أوربا المسيحية، وبالتالي ربطوا هذا الموقع بدورهم في الحروب الصليبية. فقد شبه المؤرخون المسلمون مركز البابا الديني بالنسبة للمسيحيين في أوربا بمركز الخليفة في ديار الإسلام، حتى أنهم كانوا يسمونه أحياناً: خليفتهم البابا[3]، وقد أدركوا أنه رأس النصرانية الغربية الديني، فقد وصفوه بأنه: إمام رومية[4]. ولذلك كان جزء كبير من تقديرهم للإمبراطور فريدريك الثاني ينبع من علاقته السيئة بالبابا وحربه معه، وقد ساعد فريدريك بنفسه على هذه النظرة من خلال مقارنة طريفة أجراها بين البابا والخليفة العباسي أثناء الحديث مع "فخر الدين بن شيخ الشيوخ" خلال مفاوضات تسليم القدس[5]، وقد نقلها لنا المؤرخ ابن واصل، قال: "بلغني أن الإمبراطور لما كان بعكا قال لفخر الدين ابن الشيخ: أخبرني عن الخليفة الذي لكم، ما أصله؟ فقال: هو ابن عم نبينا محمد (ص)، أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم. قال الإمبراطور: ما أحسن هذا؟ لكن هؤلاء القليلون العقول – يعني الفرنج– يأخذون رجلاً من المزبلة، ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلاً فدماً[6]، يجعلونه خليفة عليهم، قائماً مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته"[7]. إن هذه الرواية، بغض النظر عن مناقشة دقتها، تعطينا فكرة كاملة عن مفهوم المسلمين الواضح لمنصب البابوية من خلال مقارنته بمنصب الخلافة.

---

[1] – جين جوانفيل، سيرة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٣٦/ ١٠٠.

[2] – الراهب فيليكس فابري، جولات ورحلات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٤٣/ ١١٩٤.

[3] – ابن نظيف، المنصوري، ١٩٤.

[4] – وردت هذه التسمية في رسالة من الملك الجواد إلى أحد ملوك الفرنجة عام ٦٣٠هـ في سلطنة الملك الكامل ابن العادل. (القلقشندي، صبح الأعشى، ٧ / ١١٨).

[5] – ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/ ٢٤٧.

[6] – الفدم: العي عن الحجة والكلام، وهو الأحمق (لسان العرب، مادة: فدم).

[7] – ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/ ٢٥١.

وكان المسلمون يعرفون أيضاً أن البابوية قد تحولت إلى منصب سياسي أكثر منه ديني، فقد تحدث مؤرخو المسلمين عن حروب البابا مع الإمبراطورية الجرمانية، ورددوا أنباء انتصارات فريدريك على البابا واخضاعه له[1]، وعرفوا أن البابا لا يقوم بالمؤامرات السياسية فقط ضد خصومه بل يلجأ إلى تنظيم الاغتيالات السياسية ضدهم إذا لزم الأمر، فقد ذكرت عدة روايات أن البابا قد اتفق مع بعض خواص الإمبراطور فريدريك الثاني لاغتياله وهو نائم، ولكن فريدريك علم بالأمر من عيونه فقتل المتآمرين[2]. كذلك ذكروا هزيمة مانفريد ابن فريدريك أمام قوات البابا الذي تحالف مع شارل دي أنجو أخو لويس التاسع مقابل تسليمه صقلية، فهاجماها وأسرا مانفريد، ويصف ابن واصل نهاية الإمبراطور بقوله: "وتقدم البابا بذبحه فذبح"[3].

وكانت البابوية متشددة بشأن الاتصال المباشر بالحكام المسلمين، فقد كان أكثر ما أخذه البابا على الإمبراطور فريدريك الثاني هو علاقته بالسلطان الكامل ومعاهدته معه، ولكن على ما يبدو فإن البابا اضطر أن يسلك سلوك فريدريك عينه دون أن يجد أي حرج، فقد أرسل البابا إلى السلطان الصالح أيوب يطلب منه أن يمنح الصليبيين في فلسطين معاهدة سلام أو على الأقل هدنة، فرد عليه أيوب أن العلاقة المميزة بين السلطان والإمبراطور، والعلاقة المتوترة بين البابوية والإمبراطور لا تمنحه حرية عقد هذا الاتفاق دون معرفة رأي الإمبراطور، وأنه قد أرسل إلى بلاط الإمبراطور وسوف يبلغه الرد[4] . فالسلطان الصالح أيوب لم يرد تقديم خدمة مجانية للبابا تدعم نفوذه في العالم المسيحي دون الرجوع للإمبراطور لمعرفة رأيه، وكأن الصالح أيوب لا يريد أن يضحي بصداقة الإمبراطور وبالتحالف معه، خاصة بعد مرور زمن طويل على هذا التحالف

---

[1] – ابن نظيف، المنصوري، ٢٤٨.

[2] – سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٧٦٠/٢/٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٦٤١–٦٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ١٧١؛ ابن الجزري، المختار من حوادث الزمان، ٢٠٤.

[3] – ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/ ٢٥١ .

– راجع تفاصيل الصراع بين البابوية وأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة من أفراد أسرة هوهنشتاوفن في: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ١/ ٥٥٩.

[4] – متى باريس، التاريخ الكبير، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، ٤٨/ ٨٩٩.

أثبت خلاله إخلاصه، بعلاقة غير مضمونة مع البابوية التي لا تخجل من إظهار عدائها الدائم وتحريضها ضد المسلمين.

وبشكل عام كانت العلاقات المباشرة بين البابوية والممالك الإسلامية شبه معدومة، لتعنت البابوات وتعصبهم ضد علاقة كهذه، لكن العلاقات غير المباشرة كانت واسعة وذات تأثيرات فعالة جداً، فالحملة الرابعة حرفتها رغبة البابا عن الشرق الإسلامي، والحملة الخامسة كان من أهم أسباب فشلها تصدي النائب البابوي لقيادتها، وبالمقابل كانت معاهدة الكامل مع فريدريك وتسليم القدس أمضى سلاح استخدمه فريدريك لمقاومة البابا والنصر عليه. أما التحريمات واللعنات التي كان يطلقها البابوات على الدوام ضد كل من يتاجر مع المسلمين أو ينقل إليهم مواد تدعم مجهودهم الحربي[1]، فيرد عليها كلود كاهن بقوله: "بالرغم من التحريمات الكنسية فلم تشهد تجارة الشرق أي توقف" [2].

وأخيراً نجد أن علاقات الدولة البابوية مع الشرق الإسلامي كانت من خلال اهتمامها بقضية الأراضي المقدسة، التي رمت من خلفها إلى احتلال شرق المتوسط وإقامة دولة لاتينية كاثوليكية فيه، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، ومن ثم القضاء على الإسلام، وسيادة العالم. وكان البابوات يعلنون دائماً رفضهم لأي علاقات مباشرة مع المسلمين إلا علاقة الحرب، ولذلك لم نلاحظ قيام علاقات سياسية مباشرة بين البابوية والسلطات الإسلامية. أما العلاقات العسكرية المباشرة فقد تمثلت في قيادة النائب البابوي "بيلاجيوس" للحملة على دمياط في عهد الملك الكامل.ولم يهتم حكام المسلمين عموماً، والأيوبيين خصوصاً، بقيام علاقات مباشرة مع البابوية ولم يسعوا إليها. وقد كانت الفكرة السائدة لدى المسلمين عن البابا بأنه ذو منصب سياسي ديني، يشبه منصب الخليفة العباسي بالنسبة للمسلمين.

---

[1] – أرنست باركر، الحروب الصليبية، ١٠٧.

[2] – كلود كاهن، الشرق والغرب، ٢٦٢.

المصادر والمراجع

أ- **المصادر العربية والمعربة:**

- ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ، د.ت.
- الأصفهاني (العماد محمد بن محمد بن حامد الكاتب): الفتح القسي في الفتح القدسي،

آ – من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٣، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥.

ب – تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة ، ١٩٦٢ .

- باريس (متى): التاريخ الكبير، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ،٤٦ – ٥٠، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠١.
- البغدادي (موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد المعروف بابن اللباد):

آ – الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق: غسان سبانو، دار دمشق، دمشق ، ١٩٨٣.

ب – من تاريخ البغدادي ورحلته، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٤، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥.

- بوا (بيير دو): استرداد الأرض المقدسة، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٣٧، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٩.
- بورتشارد (راهب جبل صهيون): مذكرات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٣٩ ، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.
- ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير): تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار صادر، بيروت ، د.ت.؛ = من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٤، دار الفكر، بيروت ، ١٩٩٨.
- ابن الجزري (محمد بن إبراهيم بن أبي بكر): المختار من حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، اختيار: محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق : خضير المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٨٨.

- جوانفيل (جين):

آ- حياة القديس لويس، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٣٥، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٩.

ب- القديس لويس – حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٦.

- ابن الجوزي (السبط أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان:

آ- الجزء الأول، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الشروق، بيروت ، ١٩٨٥

ب – الجزء الثامن، دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد – الدكن ، ١٩٥١

ج – مقتطفات، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٥، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥.

- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم بن نصر الله): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد ،١٩٧٨.

- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشار معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٨.

- زكار (د. سهيل): الحروب الصليبية روايات شهود عيان، دار حسان، دمشق ،١٩٨٤.

- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم):

أ- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ١ – المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٦٢ ٢- من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٩، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥.

ب- تراجم رجال القرنين السادس والسابع – المعروف بالذيل على الروضتين، ١- دار الجيل، [طبعة مصورة] بيروت ، د.ت .؛ = من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد، ٢٠، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥ .

- شاهد عيان (مجهول): حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المقدسة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، المجلد ، ٣١، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٨ .

- ابن شداد (محمد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة:
أ- الجزء الأول، تحقيق: يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق ،١٩٩١.
ب – الجزء الثاني، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ، ١٩٥٦.
ج – الجزء الثالث، تحقيق: يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٧٨.
- ابن شداد (يوسف بن رافع بن تميم): النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية،
آ – تحقيق: د. جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ، ١٩٦٤
ب – من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ١٥.
- الصوري (وليم، رئيس أساقفة صور):
آ- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، المجلد ، ٧، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٤.
ب- الذيل- ليدن ، ٨٢٨، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٨، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥ .
- ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الملطي): تاريخ مختصر الدول، صححه وفهرسه: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت ، ١٩٨٨.
- العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى): قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين { من: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار }، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ، ١٩٨٥.
- ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله): زبدة الحلب من تاريخ حلب،
آ – تحقيق: خليل المنصور، مجلد واحد، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٦ .
ب – تحقيق: د. سهيل زكار، مجلدان، دار الكتاب العربي، دمشق ، ١٩٩٧.
- ابن العميد (المكين جرجس بن العميد أبي الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب): أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ، د.ت.

- فابري (الراهب فيليكس): جولات ورحلات في فلسطين – ١٤٨٠م، من الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٤٠ – ٤٣، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.
- القدسي (محمد بن خليل الشافعي): دول الإسلام الشريفة البهية، تحقيق: صبحي لبيب و أولريش هارمان، النشرات الإسلامية ، ٣٧، الشركة المتحدة، بيروت ، ١٩٩٧.
- القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد):

آ- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٥

ب- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، ١٩٦٣.
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي): البداية والنهاية، تحقيق: د.أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ت.
- المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر):

آ – السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥٧.

ب- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٩.
- ابن نظيف (محمد بن علي بن عبد العزيز الحموي): التاريخ المنصوري- تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق: أبو العيد دودو، مجمع اللغة العربية، دمشق ،١٩٨١.
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: د.أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:

آ – الجزء الأول: تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة ، ١٩٥٧ .

ب- الأجزاء: ٢-٣-٤ تحقيق: حسنين ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة ، ١٩٧٢ . ١٩٧٧.

– ويندوفر (روجر أوف): ورود التاريخ، الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، المجلد ، ٤٤ – ٤٥، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.

ب– المراجع العربية والمعربة:

– إسماعيل (أحمد علي): تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق ، ١٩٨٣.

– باركر (أرنست): الحروب الصليبية، تعريب: د.السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٦٧.

– الحايك (منذر): العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دار الأوائل، دمشق ، ٢٠٠٦

– حتي (فيليب): تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ترجمة: جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ، د.ت.

– سميل (آر . سي): فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر { ١٠٩٧ – ١١٩٣ }، ترجمة: محمد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق ، ١٩٨٥ .

– الشهابي (د. قتيبة): معجم دمشق التاريخي، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٩٩.

– رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ، ١٩٦٨ .

– زكار (سهيل): مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، المجلدات ١ – ٣، دار الفكر، بيروت ، ١٩٩٤.

– عابدين (عبد المجيد): دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل { ملحق بكتاب البيان والإعراب }، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٩.

– عاشور (سعيد عبد الفتاح):

آ– أوربا العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٧٢.

ب– الحركة الصليبية – بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٧٧.

- العريني (السيد الباز): الشرق الأدنى في العصور الوسطى . الأيوبيون، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٦٧.
- لويس (برنارد): الحشاشون – فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تعريب: محمد العزب موسى، دار المشرق العربي الكبير، بيروت ، ١٩٨٠.
- كاهن (كلود):

آ- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تعريب: أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة ، ١٩٩٥.

ب- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، تعريب: بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت ، ١٩٧٧.

- مصطفى (شاكر): في التاريخ الشامي، دار طلاس، دمشق ، ١٩٩٨.
- يوسف (جوزيف نسيم): العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨١.

ج- المصادر والمراجع الأجنبية:

- Couiton,G.G: Medieval panorama, New York, 195
- Odo de Diogil,: La Croisades de Louis VII Roi de France, Translation: Berry,V.G, New York, 1984
- Prawer, J: The Settlement of the Latens in Jerusalem, Speculum, Vol. xxv ll, 1952
- Runciman, Steven: A History of Crusades, Copy right, Cambridge University Press, 1954, Penguin Books, 1981
- William of Tyr, A History of Deed's done Beyond the Sea, 2 voles, Translation by: Babcock, E.A and Krey, A.C, New York, 1976